



## النتائج الجديدة

وهذا الفراق بين أفكاره الديكارتية إلى حد كبير ، وبين أفكار أولئك الذين ينقدم ، من تحتلط الأفكار المتنافضة في أذهانهم وتردحهم المعاني المصطرفة في عقولهم ، نجده جلياً واضحاً في الكتاب الذي يعيننا : « العروبة أولاً » .

والحق ان قارئ هذا الكتاب ينفض عن قراءته وفي نفسه الفكرة التالية تراوده : إن الرسالة القومية الأولى هي تعويد الناس على أصول التفكير الصحيح . وما يشكو منه أبناء العروبة قبل كل شيء هو افتقارهم للفكر القويم الموجه لسلوكهم ومشاعرهم . إن مؤلفه يدرك تمام الإدراك أن أول خطوة في سبيل تحقيق الكيان العربي الموحد أن نكوّن في الأذهان أفكاراً واضحة موحدة حول هذا الشأن . أفلا يبت منذ الصفحة الأولى تلك الفكرة الغالية التي يجيب بها على من يسألونه عن الطريقة العملية لتحقيق الوحدة العربية : « أول ما يجب عمله لتحقيق الوحدة العربية - في الأحوال الحاضرة -

عندما يقرأ أحدنا للأستاذ الكبير ساطع الحصري يشعر بالارتياح العميق . إنه لا يخرج من قراءته له ، كما يخرج من قراءة كثير من مفكرينا ، قلقاً غير مطمئن . ذلك أن في المنطق السليم دوماً ماوى روحياً جميلاً . والمنطق ، المنطق الواضح ، أهم ما يسم كتابات الأستاذ الحصري . وعندما نذكر المنطق نعني في الوقت نفسه ما وراءه من روح علمية نيرة تأبى العوج ولا ترضى عن الدقة بديلاً .

ولئن كان هذا التفكير المنطقي العلمي بيناً لديه دوماً ، فهو أبين وأشرق حين نوازن بينه وبين التفكير المرسل المهمل الذي يحاول ان ينقده هو . وليس من قبيل الصدفة ان نرى اكثر كتابات الاستاذ تتخذ شكل نقاش لأفكار غيره . فهو لا يقيم على عوج منطقي ، ولا يسكت عن اضطراب الفكرة وتمهات الرأي .

### الندامي :

هذا محال سندباد أن يخوب في البلاد  
إننا هنا نضاجع النساء  
ونغرس الكروم  
ونعصر النبيذ للشتاء  
ونقرأ ( الكتاب ) في الصباح والمساء  
وحيثما تعود نعدو نحو مجلس الندم  
تحكي لنا حكاية الضياع في بحر العدم

### ٥. الميلاد الثاني

في الفجر يا صديقتي تولد نفسي من جديد  
كل صباح احتفي بعبيدها السعيد  
مازلت حياً! فرحتي! مازلت والكلام والسباب والسعال  
وساطيء البحار ما يزال يقذف الأصداف واللآلئ  
والسحب ما تزال  
تسح .. والمخاض يلجىء النساء للوساد  
ويلعب الأطفال فوق أسطح البيوت  
لعبة العريس والعروس والثبات والنبات  
والورد في خد البنات

وعند شط النهر عاشقان سارحان

لله ما أحلى عيون العاشقين حين يبسمون  
ويقسمون

بجرمة الشجون

وبالليالي المثقلات .. وانتفاضة الحنين

وبالسواد في العيون

العهد لن يهون ..

صديقتي ! عمي صباحاً .. هل ذكرت 'نزهة الجبل' ?

### ٦. إلى الأبد

الرخ مات .. لا ترع .. فالشاه ما يزال

والشاه بالبيادق التأم

إلى اللقاء - وافترقنا - نلتقي مساء غد

لنكمل النزال فوق رقعة السواد والبياض

وبعد غد .. وبعد غد

سنلتقي .. إلى الأبد .

صلاح الدين عبد الصبور

القاهرة

من الجمعية الأدبية المصرية

هو إيقاظ الشعور بالقومية العربية وبث الايمان بوحدة هذه الأمة» ؟

والأستاذ الحصري يقف هنا - شأنه في مناسبات أخرى - عند فكرة عزيزة عليه ، وينبغي أن تكون عزيزة على كل مفكر في نظرنا . وهي أن الفكرة قوّة<sup>١</sup>، وأن الرأي الصحيح عندما يحتمر في ذهن صاحبه لا بد أن ينقلب إلى سلوك وعمل . وأن السلوك ما هو إلا الفكرة في حال تحركها وصيرورتها إلى فعل . وبهذا يرد أقوى رد على أولئك الذين يحاولون أن يقيموا حدوداً فاصلة بين النظر والعمل ، بين التفكير النظري والتفكير العملي . فلقد ذاعت بين أوساط مفكرينا نزعة<sup>٢</sup> - هي واحدة من تلك المزالق التي يحدثنها الأستاذ في كتابه - قوامها أن الواجب يلزمنا بالابتعاد عما يدعونه بالتفكير النظري ويدعوننا إلى الاقبال على ما يسمونه بالتفكير العملي . ويفهم أصحاب هذه النزعة التفكير النظري على غير معناه الحقيقي ، كما يفهمون التفكير العملي على غير حقيقته . فهم يجعلون التفكير النظري غالباً مرادفاً للتفكير الأجوف الفارغ ، ويجعلون التفكير العملي ذلك التفكير الذي لا يابى للبحث النظري العلمي ويمضي في سلوكه دون أن يقلب الأفكار في ذهنه . وكلا الفهمين للتفكير النظري والعملي خاطيء . فالتفكير النظري الصحيح ليس تفكيراً أجوف ، ولا هو تفكير مبانٍ للواقع والعمل : انه يسقي خطوطه وبنياته من الواقع نفسه ومن التجربة العمالية نفسها . سوى أنه ينظم هذا الواقع في جهاز فكري واضح ، ويضع التجربة ضمن اطار عقلي مستقيم . والتفكير العملي كذلك ليس ذلك التفكير الهارب من العقل ، السائر في سلوك غرزي سطحي ، وانما هو ذلك التفكير الذي يستمد جذوره من الفهم العقلي النير ، والذي يمتاح قوته من وضوح الخطة الفكرية وسلامة الصورة الذهنية . وبهذا تزول الحدود بين التفكير النظري المزعوم والتفكير العملي المزعوم ، وتصبح الخبرات كلها خبرات عقلية ، والتجارب تجارب ذهنية تنقلب عند نضجها واكتمالها الى عمل وحركة .

ويرتبط بهذا المزلق الخطير من مزالق الفكر - وهو مزلق نجده شائعاً في بلادنا اليوم - مزلق لا يقل عنه خطراً وشيوعاً ، هو مزلق المثالية والواقعية . وقد سبق للأستاذ الكبير ان فنّد هذا المزلق أحسن تفنيداً<sup>٣</sup> . اذ ردّ على مزاعم أولئك الذين يتهمون بعض الأفكار بالمثالية ، جانحين بهذه

١ نترجم هنا كلام الأستاذ إلى لغتنا .

٢ لارجع خاصة الى كتابه عن القومية العربية بين أنصارها وخصومها .

الكلمة إلى معنى يقربها من الخيال والوهم . ويبيّن إذ ذاك فكرة أخرى عزيزة على المفكرين الواعين وهي أن الواقعية الحقيقية في المثالية نفسها ، وأن الذي خلق التاريخ وخلق الأمم وأحدث الانقلابات الحقيقية في حياة الشعوب هم أولئك المفكرون الذين كان ينعتهم أبناء عصرهم بأنهم مثاليون . بينما لا يستطيع الواقعيون السطحيون أن يجاوزوا حدود ما هم فيه ولا يقوون على خلق شيء جديد .

والحق إن أقتل ما نواجهه في حياتنا العربية اليوم ذلك الاضطراب في فهم المثالية والواقعية . أفلا يتخذ بعضهم من نعت المثالية تهمة يتهمون بها من ينادون بالوحدة العربية؟ أفلا يتدفع بها الكثيرون لمحاربة كل فكرة فيها بصيرة ونظرة إلى أمام ومجازرة للمألوف وارتفاع عن اللصوق بالطين؟ أفلا يلجأ إليها كثير من الحكام في بلادنا العربية لتبرير ما يقومون به من أخطاء وخيانات في بعض الأحيان؟ بل إن هذا المزلق يكاد يؤدي إلى خلق مفهوم خاطيء عن الذكاء نفسه : ألسنا نجد نعت الذكاء (والذكاء العملي فيما يقولون) يلقي في بلادنا على من عرف أن يكون سطحياً في حياته ، لاصقاً بمجمأه الأرض ، مبتعداً عن كل ومضة من ومضات النفوس الفنية؟ أفلا نضع مقياساً للحقيقة في كثير من الأحيان النجاح الموقت؟

إن من حقنا فيما نعتقد أن نعتبر هذا الموقف الذي يقفه بعض الناس اليوم من المثالية والواقعية انتقاماً من روحنا العربية الأصيلة . فاصحابه يذهبون إلى الطرف المناقض تماماً للنظرة العربية . ولئن كنا ننكر المثالية المفرقة التي تخرج عن حدود العمل والتطبيق ، فنحن ننكر في الوقت نفسه الواقعية التي تخاف من كل إرهاب بفكرة مقبلة ، ومن كل استباق للحاضر .

من خلال هذه النظرة المقوّم للأخطاء الفكرية الشائعة يتحدث الأستاذ الحصري عن الوحدة العربية في كتابه . ومن منظار هذا الفكر المنطقي الحاد ينظر إلى أقوال بعض رجال العرب بمن يلعبون دوراً كبيراً في قضية الوحدة هذه . إنه ينتقد أجل نقد فكرة طالما ردها الكتاب نقلاً عن سعد زغلول إذ يروي الأستاذ عبد الرحمن عزام أنه حين أراد أن يتكلم عن الوحدة العربية قاطعه سعد زغلول سائلاً : « اذا جمعت صفراً إلى صفر ففصر ، ماذا تكون النتيجة ؟ » . فهذا القول قد تلقفه كثير من الكتاب والمفكرين وأصبح من الأفكار السائرة

بصر اولاً ، مبنياً أن شعارهم ينبغي ان يكون على العكس : « العروبة اولاً » . وهو في هذا المجال يفتضح اموراً خطيرة ، ويكشف عن نقائص التفكير العربي لدى عدد من رجالات العروبة . وهو لا يفتضح ذلك بقصد التجريح والتهميم ، وإنما يفتضحه ايماناً منه بما لا يوضح الافكار من قيمة وشأن ، وثقة منه بأن هؤلاء المفكرين سائرون لا محالة في طريق التفكير السليم الذي يتقدم الى القول : العروبة اولاً . ونحن الذين شهدنا بزوغ التفكير العربي في مصر منذ مراحل العملية الاولى حين كنا طلاباً في كلية الآداب بين عام ١٩٤٢ وعام ١٩٤٦ ، ونحن كنا نعمل مع اخواننا الطلاب العرب في مصر على توضيح كثير من الحقائق حول الفكرة العربية ، ندرك تمام الادراك ما في نقد الاستاذ الحصري من صواب ، وما في رجائه ايضاً من صدق . ونرى ان عرض الامور هذا العرض الصريح والأخوي معاً هو الموقف القومي الصادق الذي ينبغي ان يفقه كل مخلص للقضية العربية .

إنه يبين للأستاذ عزام ( وهو احد ثلاثة اشترى كوا في مناقشة سؤال الأستاذ رضوان ) بياناً لا غنمة فيه ما في اقواله حول الفكرة العربية من اضطراب ومن سفح للآراء المتناقضة بعضها على بعض . فبعد الرحمن عزام يرى أن « مصر هي المدرسة الأولى للبشرية ، وان الله فضلها على العالمين » . ويرى انها مركز إشعاع عالمي ، إذا غضبت رأيت الناس كلهم غضاباً وإذا رضيت رضي الناس من جميع الألوان والافكار . وهو يجيب على السؤال الاصيل : « من أنا ومن أنت » . هذا الجواب الحائر : « نحن مصريون اولاً وعرب ثانياً ومسلمون ثالثاً » . وهذا الجواب يذكرنا بما كنا نسمعه من أكابر الأساتذة من احاديث عن العروبة لا يفرقون فيها بين العربي والشرقي والمسلم . بل يذكرنا بما قاله احد العمداء في ايماننا ، مبشراً رابطتنا (رابطة الطلاب العرب) بانفهام فردين جديدين اليها، هما طالبان صينيتان سمع بقدموما الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول !

بل إن الأستاذ عزام ، كما يذكر الأستاذ الحصري ، يذهب مذهباً أغرق في الغموض حين يقول ان مصر لا تستطيع ان تمشي بدون سوريا « لأن الاستراتيجية الطبيعية لنا تقضي ان تمشي سوريا في ساحتنا الحيوية » أو ليس من حق الأستاذ الحصري ومن حقنا ان نعتبر العلة الأولى التي تقف دون تحقيق الوحدة العربية هذا الاضطراب الفكري في فهم القضية القومية؟ أو ليس من واجبه وواجبنا جميعاً ان نعتبر رسالتنا القومية الاولى تربية الفكر الصحيح والفهم الواضح ؟ فهل يمثل هذا الايمان الغائم تأمل ان نبني وحدتنا ونرجو ان تستقيم جامعتنا العربية ؟

وبعد ، هذا قليل من كثير مما اورده الأستاذ الحصري لتوضيح الحقائق وجلاء المفاهيم . ونحن نسيء إلى عمله دون شك حين نعرضه مجزؤاً ومجزؤاً على هذا النحو . غير اننا وجدنا من واجبنا ان نشير بالنبان الى بعض الأفكار التي وقف عندها والتي يجدر بكل عربي أن ينعم النظر فيها . وإن كان لنا عند الأستاذ الكبير رجاء ، فهو ان يقدم لنا الشطر الثاني من أفكاره ، وهو الشطر الذي يكمل ما يكتبه دوماً عن القضية العربية .

التي نالت حظ الذبوع والانتشار « لما تضمنه من تشبيه طريف » كما يقول الاستاذ الحصري . ولقد قُيِّض لنا أن نسمع من كثير من مفكري مصر إشارات إلى هذا القول الطريف الذي يسحر الابواب منذ الوهلة الاولى فيشل فيها « نزعة البحث والاستقصاء » . ومما نذكره أن هذا القول كان محور محاضرة القاها المرحوم الدكتور محمود عزمي في كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول عام ١٩٤٤ . ولهذا فالاستاذ الحصري حين يمتص هذا القول يرد في الواقع على فكرة طالما أفسدت رأي المعنيين بالوحدة العربية عندنا ، من خصوم وأنصار . وأجل ما في رده إيضاحه لذلك الامر الذي يشير اليه علماء الاجتماع دوماً ، وهو أن الاجتماع لا يشبه الجمع ، وأن اجتماع عدد من الافراد لا يؤدي الى نتيجة هي مجموع ما عند هؤلاء الافراد من قوى ، وإنما يؤدي الى خلق تفاعل جديد وقوة جديدة . فطبيعة الاجتماع تخلق شيئاً جديداً وحوادث جديدة وقوى زائدة عما لدى الافراد . والاجتماع ليس مزجاً وإنما هو تركيب كيميائي . السنا في حاجة الى مثل هذه المحاكمة المنطقية العلمية عندما نناقش مسائل الوحدة العربية ؟ السنا في حاجة الى أن نؤمن بما يحدثه تفاعل أبناء الامة العربية من قوى نضالية أكبر ومن قدرة على التحرر والانطلاق أشد وامتن ؟ ان من البديهيات التي ينبغي ان نصدر عنها في تفكيرنا القومي ان القضاء على الآفات التي تشكو منها كل دولة من الدول العربية لا يكون الا عن طريق عمل عربي موحد ، ولا يمكن ان يتم بجهود كل دولة من الدول على انفراد . فالنضال ضد الاستعمار لا يجدي الا اذا كان نضالاً عربياً موحداً . ومحاربة الامراض الاجتماعية لا تتم الا عن طريق عمل عربي واحد . وسنتنظر الى الابد ان نحن اردنا ان يصبح كل صفر بمفرده واحداً ، فهو لن يكتمل الا عندما يجتمع الى الاصفار الاخرى - ان صح اننا امام اصفار ، لا امام اجزاء من الوحدة ، كما يقول الاستاذ الحصري . ثم يبلغ التفكير المنطقي اشده عند الاستاذ الحصري عندما يعرض لتلك المسألة التي أثارها الاستاذ فتحي رضوان في محاضرة القاها بناي نقابة الصحفيين بالقاهرة ، عنوانها « من أنا ومن انت ؟ » . وعن طريق مناقشته لاقوال عدد من المفكرين في مصر اشترى كوا في مناقشة هذا الموضوع بعد ذلك ، يصل الاستاذ الحصري الى القصد الاول من كتابه . اذ يدحض مزاعم القائلين بأن عرب مصر ينبغي أن يعنوا

وإذا كان على المفكر العربي في الاحوال العادية واجب الاسهام في معالجة قضايا وطنه ، فان ما بلغه المجتمع العربي اليوم من تعقد الحصاص والمميزات وما يجتازه من مرحلة بالغة الدقة والحرج ، يفرض على كل مفكر فيه ان يهب فكره بتضحية وسخاء وحماسة ليعالج مشكلات وطنه يسير نحو مستقبل غامض ، في تحبط وقلق .

هذا ، ولا ريب ، ما دعا الدكتور فايز صايع إلى ان يهيب بالمفكرين إلى ان ينهضوا برسالتهم نحو الفكر الذي يمثلونه ، ونحو وطنهم الذي هم ابناؤه ، فنشر كتابه « رسالة المفكر العربي » الذي كان من اصدق المحاولات العلمية التي تدرس احوال الواقع العربي ومظاهر التبدل فيه .

طراً على حياتنا تغييرات وتطورات مختلفة ، نتيجة لاتصالنا بالغرب واتصالنا بالعلم ، كما طراً على اوضاعنا السياسية تعديلات مختلفة عما كانت عليه أيام العثمانيين . ونحن نقف اليوم في خاضر قلقي نتطلع الى ما نحن مقبلون عليه من احداث يحملها الينا الغد ، وقد نقررها بأنفسنا اذا عقدنا العزم على ذلك واثبتنا وجودنا ووضعنا خطوط مستقبلنا بأيدينا .

ازاء هذا الوضع الراهن بمشكلاته وتطورات ، وقبيل مصير غامض يقترب شيئاً فشيئاً من عالم الواقع ، لا بد للعقل العربي من ان يقوم بعملية فكرية ، شاقة ، جريئة ، يريد بها الدكتور صايع « عملية إعادة النظر في مفاهيمنا وتصوراتنا وردودنا التقليدية ، عملية تحليل الواقع العربي الراهن على ضوء طبيعته المستجدة ، وتفهم التحديات الناشئة عنه تفهماً واقعياً ، متطوراً نامياً ، يتناسب مع طبيعتها المتبدلة ، وعملية وضع خطط شامل لسياق الحياة العربية في عهدها الجديد ، مستوحى من الواقع الراهن ومقتضياته . انها عملية فكرية ثورية ، عملية هدم وبناء ، عملية تجديد .

إنها دعوة جليلة الخطر تتلاءم مع خطورة الوضع القومي في العالم العربي ، من ناحية ، وتتلاءم مع عمل المفكر من ناحية ثانية ، وبلادنا أحوج ما تكون اليوم إلى المفكر الذي يؤدي زكاة فكره لوطنه في هذه اللحظات الخطيرة التي نقف فيها امام مفترق تشعب منه طرق مختلفات ، تزيد الواقفين حيرة وتردداً وضعفاً .

إننا لنعجب كيف ان كثيراً من الكتب الصادرة في هذه الأيام ، في عالمنا العربي ، لا يدل محتواها على تاريخ صدورها ،

ونعني به ذلك الجانب الذي يهدونه العربية هذه مضموناً إيجابياً ونضالياً ، إلى جانب هذا المضمون الفكري العالي ، وذلك عن طريق الربط بين القول بالوحدة العربية وبين القول بالاصلاح الاجتماعي والانتقال على الاوضاع الفاسدة . فالعمل للوحدة العربية يكون اول ما يكون دون شك بتوضيح الأفكار ورسم صورة نيرة لايمان عقلي عميق . غير أنه يكون الى جانب هذا بيان الاتصال التام بين العمل للوحدة العربية وبين العمل لتحقيق انقلاب اجتماعي يقضي على الاستئثار الشائع في البلاد العربية ويمرر الفرد العربي من إسار أوضاعه الاجتماعية السيئة . فالعربي عندنا مغلول القوى مشلول المواهب بالظروف الاجتماعية السيئة التي يرزح تحتها . وتخليصه من هذه الأغلال هو الذي يؤدي إلى تفتح فكره وإيمانه . واعداء الوحدة العربية ليدت هي الافكار المغلوطة التي نملكها عنها فحسب ، وانما هي ايضاً تلك الآفات الاجتماعية التي تفسد النفوس وتقتل القوى وتحمل طاقات الامة العربية مهدورة ضائعة . ولهذا فلا عجب ان رأينا أن اعدى اعداء الوحدة العربية هم اولئك الذين تروهم الاوضاع الحالية والذين يعيشون على حساب الفساد الشائع والتأخر الاجتماعي القائم ، بينما أنصارها دوماً هم اولئك الذين يطمحون الى انقلاب في الوضع الاجتماعي يطلق القوى العربية من عقابها .

عبدالله عبد الدائم

دمشق

كلية التربية بالجامعة السورية



## رسالة المفكر العربي

تأليف الدكتور فايز صايع

منشورات مجلة الاحد ، بيروت - ١٢٠ صفحة

كثيرة هي المشكلات التي يجابهها عالمنا العربي في مختلف شؤون حياته ، وفي مختلف اقطاره .

ففي الحياة الاجتماعية مشكلات الفقر والمرض والاقطاع والاجرام واللاجئين . وفي الحياة السياسية قضية الصلة بين المواطن والحاكم ، وازمات الحكم واختلاف الاحزاب وتضارب الفلسفات العقائدية ، ومطامع الاستعمار . وفي الحياة الاقتصادية مشكلات الانماء والري والمواصلات واستقلال النقد . وفي الحياة الفكرية مشكلات التعليم والامية ومشكلات اللغة في قضية الفصحى والعامية وفي المصطلحات الحديثة .

ولكل قطر مشكلاته الخاصة به ، ومشكلاته في علاقته بسائر الاقطار العربية .

ولا تكاد بعض الحلول الآتية توضع لعلاج أجزاء من هذه المشكلات ، حتى تكون المشكلات الاخرى قد تضخمت وتعمدت وتوالدت ..

ولا يصور موضوعها جانباً من جوانب حياتنا . إنك تجد فيها عوالم وأناساً لا يمتون إلى واقعنا الا بما تمت قارة الى قارة، وماض الى حاضر. اما مشكلات الفرد العربي التي تعترضه صباح كل يوم اذا ما أقبل على عمله ، ومساء كل يوم اذا ما آب الى بيته ، اما مشكلات المجتمع العربي في علاقة افراده بعضهم بعضاً ، اما مشكلات الوطن تجاه اوضاعه الداخلية الاقليمية ، وتجاه علاقاته الاخوية في العالم العربي ، وتجاه علاقاته الخارجية بين دول كثيرة متزاحمة . اما هذه القضايا التي تقرر مصيرنا كلنا كناس نعيش كراماً اولا ولا نعيش في مستقبل قريب ، فهذه موضوعات يتوك المفكرون لغيرهم أمر معالجتها ، و «غيرهم» هذه قد تعني رجال السياسة ، وقد تعني رجال الشارع ، وكثيراً ما تعني الظروف الطارئة والأحوال المرتجلة .

.. حتى كان هذا الكتاب «رسالة المفكر العربي» مصباحاً يضيء ظلمات في كلمات. ونحن في حاجة ماسة إلى مصابيح كثيرة تيرسبيلنا وتضع المفكر أمام تبعاته تجاه وطنه كمفكر وكموطن وتدفعه دفعا إلى ان ينهض بعثه كاملاً ، والا اتمم بالتقصير ، والتقصير في اللحظات الحرجة هو الحياة بعينها .

ولما كانت مشاكلنا القومية قد تضاعفت وتشابكت فقد أصبحنا لا نستطيع على رأي الدكتور صايغ «اذتصب على حقل واحد من حقول مشاكلنا القومية ونحشد نشاطنا في سبيل معالجته أن نعلق المشاكل الأخرى ونضعها على الرف او نرجىء اتخاذ موقف واضح عنها . فواقع التشابك بين مشاكلنا يحظر علينا مثل هذا التجريد في النظر ، كما يحظر علينا عزل احدى المشاكل عن الاخرى في سياق العمل » .

ويرى مؤلف «رسالة المفكر العربي» ان اسهام المفكر العربي لا ينبغي ان يتم عن طريق الجهد الفردي ، فلا بد اذن من ابتداء تصور جديد لمؤسسة فكرية توجيهية تضم رجال الفكر الممتازين المنتجين وتكون مصدر خلق للتوجيه واداة بث له . وينبغي ان تنزه عن أي شكل من أشكال الارتباط بالهيئات الحزبية السياسية القائمة .

لا ريب ان تعاون رجال الفكر وتعرفهم إلى اتجاهات كل منهم وتبادل الفائدة من خبرات بعضهم بعضاً بحيث تكمل معرفة فئة معرفة اخرى ، وبحيث يلتقي الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والحقوقى ، ويلتقي المؤرخ والفنان والفيلسوف ، فتغنى المواهب وتنوع وينشأ نوع من الشمول في دراسة

مشاكلنا القومية ، اقول : لا ريب ان تعاون رجال الفكر على هذا النحو مفيد ومثمر ، غير انني لا اذهب الى ما ذهب اليه الدكتور صايغ في وجوب ضمهم جميعاً في جمعية فكرية تعقد اجتماعات وتؤلف لجاناً ، فقد اعطت التجارب الكثيرة المتتابعة أجوبتها الحاسمة على مثل هذه المحاولات ، فان طبيعة امزجتنا وطبيعة هذا العمل الجذري العميق لا تعطيان شيئاً مجدداً في عقد الجلسات والمؤتمرات. وقد جربنا المؤسسات العامة في أمر اسهل من مشكلات القومية ، جربناها في تجديد لغتنا ، فأنشأنا الجماع اللغوية العديدة التي ما لبثت بعد عشرين سنة ان اصبحت مباءة للعجز اللغوي . وفي الوقت نفسه قامت محاولات فردية فأعطت أكثرهما أعطت الجماع . وإن اعظم الحلول واعمق الفلسفات واصدق المعالجات عندنا وعند الآخرين ، قديماً وحديثاً انما ظهرت نتيجة لهواهب الفردية ولعملها المستقل الهادى والعميق . ولم يكن عمل اللجان ، يوماً ، في جلساتها الا ان تناقش جهوداً قد تمت ، وقد يجوز فيها عندئذ بعض التصحيح والتحويل . اما الابداع فذلك من شأن العبقريات التي تتلوه الى نفسها ، واكاد اقول ان اوضاعنا المعقدة المتشابكة امست في حاجة الى معجزات عقلية لا إلى حلول تنشأ حول الموائد !

لقد احسن الدكتور صايغ في إهابته بالمفكرين الى ان يؤدوا واجبهم ، في الصراع القومي ليدلوا ابناء امتهم على طريق الخلاص لبلوغ مصير عزيز ولكن ليدعهم يفكرون مستقلين ، وليقدموا بعد ذلك ثمرة فكرهم الى المجموع ليدرسه ويفهمه ويناقشه ، الى ان يظهر الرأي الصحيح اخيراً . وآخذ المثل من الدكتور صايغ نفسه ، فقد نشر دراسته في كتاب اذاعه على الناس ، وقد رأى فيه كثير من القراء غداءً فكرياً ممتازاً ، جديراً بأن يكون نقطة انطلاق نحو اجاث اوسع وأشمل في آفاق القومية . وأكبر الظن انه لو عرض هذه الدراسة على لجنة من اللجان لأضاعت وقتها ووقته في كلام طويل حول زوايا جانبية من البحث قد تضيع معه الغاية الرئيسية من الدراسة .

أخالف رأي الدكتور فايز صايغ في تأليف جمعية تضم المفكرين على اختلاف اختصاصاتهم لمعالجة شؤوننا القومية ، لانني لا ارى فيها جدوى . والواقع ان دون تكوين هذه الجمعية هو الأ... من يختار اعضاءها ؟ وما هي الاسس التي يختارون عليها ؟ بل من هو المفكر الذي يعنيه الدكتور صايغ ؟ وهذا السؤال الاخير كان على المؤلف ان يجيب عنه ،

لما يكتنف كلمة « المفكر » من غموض ولما يتعلق بها من ظفيليات. ليست كلمة « المفكر » او رجل الفكر من الكلمات المحددة ككلمة طبيب او مهندس او مدرس ، فقد تداخلت مفاهيم الكتاب لهذه الكلمة حتى اختلط المفكر الحقيقي بغيره من له صلة ما بالفكر واهله. فما هو الحد الأدنى الذي ينبغي توفره في الشخص ليصبح بعده رجلاً من رجال الفكر . ولا ريب ان توضيح مفهوم المفكر، في كتاب عن الفكر العربي، على جانب كبير من الاهمية، وخاصة اذا ظهر في ثنايا الكلام، وبصورة غير واضحة ، ان الدكتور صايغ قد يعني بالمفكر المهندس والطبيب والرسام والموسيقي وغير هؤلاء من اهل الفن ورجال الاعمال !

ولما كان الكتاب عن رسالة المفكر العربي ، وكان المفكر العربي نفسه جزءاً هاماً من كيان العرب ، فقد كنت اتوقع ان يتناول المؤلف مشكلات المفكر العربي وعيوبه ، كما درس مشكلات الوضع العربي. فالخيرة والغرور ، والجمود ، والانزواء صفات تطبع كثيراً من المفكرين العرب في هذا العصر ، وتفسد عليهم تفكيرهم وتحول بينهم وبين ان يحظوا لدى الجمهور بالثقة والاحترام .

ليدرس كل مفكر جانباً من قضايا القومية من ناحية اختصاصه وخبرته ، وليقدم نتيجة درسه إلى جمهور القراء . وليدرس مؤلف كتاب « رسالة المفكر العربي » بعض الاسئلة التي اثارها في مجته وتركها من غير جواب ، ولينثر دراسته على الناس ، وعندئذ يكون قد ادى حقاً جانباً هاماً من جوانب رسالة المفكر العربي .

بهيج عثمان



## قبل فوات الاوان

بقلم الدكتور اديب منصور

دار العلم للملايين ، بيروت - ٢٢٣ ص

« قد يقول قائل : ولكن من يضمن حرية القول للفكرين . واجيب : ومتى كان المفكرون الكبار واصحاب الرسالات ينتظرون ان تهدى اليهم الحرية ليقولوا ؟ اذا وجد المفكر الاصيل فانه ينجح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال . » اديب منصور

تميزت الحياة السورية العربية، في السنوات السبع الاخيرة، بتعاقب الحوادث العنيفة فيها اكثر من اي بلد عربي آخر .

وتميز المواطن السوري العربي انه وقف خلال هذه الاحداث مشدوهاً متعجباً بادىء الامر ، حيايداً متفرجاً في آخره ، يتصف بالانفعال اكثر مما يتصف بالفعل ، ويتريث ريثماً تنتهي هذه القوى من لعبتها مكتفياً لنفسه بالحيايد .

وكتاب الدكتور منصور « قبل فوات الاوان » الذي يتناول هذه الاحداث السورية بين ١٩٤٨ و ١٩٥٥ بالدراسة والبحث يستوقفك اول ما يستوقفك فيه عنوانه: هذا العنوان الذي يوجز احداثاً كبيرة في كلمات قليلة . فهو يوحي اليك بحس الزمن والتاريخ، وانك جزء منه وانه جزء منك . فانت تطل منه على الماضي القريب البعيد ، وانت مع ذلك تطل على المستقبل بما فيه من امكانيات يتوقف تحقيقها عليك . وفضيلته انه لا يجمد الحاضر من اجل الماضي ، بل يخلق فيه قابلية للتوثب والفعل . فالحاضر يبلغ اوجه خلال المستقبل الكامن فيه ، الذي يتيح للفرد ان يحول امكانيات المستقبل الغنية الى قسم حي منه اما برفضها او بقبولها . والكتاب يقسم الى ثلاثة اقسام : الاول كتب قبل الاحداث والثاني في غمرتها والاخير بعدها .

قال الدكتور منصور في مقدمة كتابه : « وان كانت هذي الدراسات والمطالعات قد كتبت او القيت في ظروف مختلفة فانها تدور كلها حول الخير العام ، وقد صيغت ضمن اطار الاحداث التي حدثت في السنوات السبع الاخيرات ، وان وراءها نظرية سياسية واحدة تحدها روح واحدة وهذا ما يبرر جمعها بين دفتي كتاب . » والدكتور منصور لم يبالغ في قوله هذا . فالكتاب برمه يصدر عن ايمان عميق بالديمقراطية كفضل نظام للمجتمع ، ومعرفة كاملة بقواعد الحكم الديمقراطي واساليبه وشروط تحقيقه . والحقيقة ان كل نقد في الكتاب للمساوية الواقعة او التي وقعت ، ينبعث عن اقتناع عقلي اصيل مخلص بصلاح الحكم الديمقراطي . ولا يصعب على القارئ ان يتبين الى جانب ذلك ان الكاتب يصدر عن ثقافة سياسية متينة ، ويجول على مستوى التفكير السياسي العقلي في افق عال رفيع غير عادي بالنسبة لادبنا السياسي. ثم ان الدكتور منصور لم يقف وقفة المتفرج من الاحداث السورية التي يكتب عنها بل عاش هذه الاحداث، كما يعيش احداث بلاده، كل مفكر مؤمن مخلص ، وانسكت آثارها في شعوره بقوة وعنف .

نقرأ في موضع من الكتاب هذا القول : « ليس في ميدان السياسة السورية اليوم من يمثل النظرية الديمقراطية بعمق وشول وقوة تعبير كما يمثل النظرية الماركسية مثلاً بعض اصحابها » . وهذا الحكم - وهو حكم صحيح - ان دل علي شيء فعلى الفراغ الفكري والواقعي الذي يعيش فيه ما نسميه بالديمقراطية السورية . فالماركسي مثلاً حين يصدر في سلوكه وتفكيره عن فلسفة شاملة جامعة كلية تقدم له حلاً لكل مشكلة من المشاكل، يقابله الديمقراطي العربي او القومي العربي حائراً متردداً مرتبكاً ليس لديه مثل تلك الفلسفة الشاملة او النظام الكلي ليستوحي منهما . ونقرأ في موضع آخر من الكتاب « والحكم الديمقراطي في سوريا مبها كانت هناته واخطاؤه ونفرائه هل عرفنا حكماً آخر افضل او اكرم او اسلم منه في الربع القرن الاخير او

في العهد الوطني الخالص بعد الجلاء» . فاذا كان الدكتور تصور يؤمن مثل هذا الايمان بالديمقراطية ، ويدرك في الوقت ذاته فشلها في البلاد العربية لحق لنا السؤال: ترى لماذا انتهى النظام الديمقراطي بينما الى مثل هذا الوضع ؟ من خصائص الكتب الغنية بالفكر انها تثير اعوص المشاكل وادقها . وهذا في رأبي احدى الميزات التي يتصف بها كتاب الدكتور تصور . فمشكلة الحكم الديمقراطي في بلادنا هي لا ريب احدى هذه المشاكل الاساسية . غير ان الذي يبدو لي ان الكتاب يتضمن تشديداً على شكل الحكم الديمقراطي اكثر منه على جوهره . ويدخل في الشكل اداة الحكم - اي حكم - وجهازه . ويدخل في الجوهر الامة والمجتمع والفرد في المحط الاخير . وعلى ذلك فنحن نجد انفسنا شاخصين باصدارنا صوب قمة الهرم واطاره اكثر من قاعدته واساسه . انا لا اقصد ابداً ان اقول ان الدكتور تصور اهمل الناحية الثانية . بل اننا نظلم الكتاب والكتاب لو ذهبنا الى مثل ذلك . فالدكتور تصور يؤكد في اكثر من موضع من كتابه : « الاصلاح الحقيقي يبدأ مع الفرد في عقل الفرد وقلب الفرد » و « الخلاص في تكوين نفس عربية جديدة . نفس قد تكون وجدت قبل الآن في افراد قلائل ولكنها لم توجد حتى الآن كنفس قومية شاملة » وفي موضع آخر : « انا اطالب بالضمان الاجتماعي واطالب بتحقيق العدالة الاجتماعية باوسع معانيها . الخبز يجب ان يؤمن لجميع الناس والغذاء الكامل والكساء والماوى اللائق والدواء والعلم بلا استثناء . ويجب ان يرتفع مستوى الحياة الى اعلى الدرجات » ومثل هذه الراء القيمة كثيرة منتثرة في الكتاب . ومع ذلك فجهاز الحكم ومشاكله يلقي عناية اكثر على يد الكتاب . وانا اشدد بدوري حيث اتجه تشديده بل حيث يتجه تفكيرنا السياسي العربي بصورة عامة . فنحن على حد تعبير فلسفي نوكد بالدرجة الاولى فكرة « الشيء بذاته » ونضع في المرتبة الثانية الواقع الحي الذي تعيش الفكرة في نطاقه ، وتتفاعل معه ، وتتأثر منه وتؤثر فيه . وفي منطق الحياة عكس هذا الترتيب . هكذا مثلاً لو قارنا فكرة الديمقراطية المثلى كفكرة ذاتية مستقلة ، بوجودها العربي لانصح لنا الفراغ الرهيب الذي تعيش فيه هذه الفكرة ولما وجدنا من الحياة الديمقراطية سوى شكلها او اطارها . وقياساً على ذلك نشدد في مجتمعنا العربي على اشكال المؤسسات واطاراتها اكثر مما نشدد على روحها والحقيقة الحية الفاعلة التي تعمل فيها على مستوى الوجود . وكم من مؤسسة عندنا ماتت لانها ولدت بشكل اطار فقط . او قل انها ولدت مائة .

فنحن وجدنا في اطار الجامعة العربية مثلاً - وهو مجرد شكل يستمر بحكم الوجود لا اكثر تحقيقاً لنزوع الروح العربية نحو وجود افضل واكمل واغوى . فاذا بالوجود الحي يضعنا يوماً بعد يوم ، ووجهاً لوجه ، امام اطار اجوف وامام خيبة مريرة .

ولناخذ بعض المبادئ الاساسية التي ترتكز اليها الديمقراطية . التمثيل الشعبي الذي يفصح عن ارادة الاكثرية الناجبة . هل يمكن حقاً ان نتحدث عن تمثيل شعبي صحيح صادق في مجتمع اقطاعي ؟ اي انسان يمثل اي انسان في مثل هذا المجتمع ؟ واذا فقهننا حقيقة مثل هذا التمثيل الا نرى انه يعدم ذاته بذاته وينقض هدفه بحكم اسلوب صالح مثالي أسيء استعماله ؟ ولو اخذ المجلس قراراً بتوزيع الاراضي محاربة للنفوذ الاقطاعي ، فان الاقطاعية تظل مع ذلك حية لانها ليست مجرد نظام سياسي او اقتصادي او اجتماعي . انها بدورها حالة عقلية ونفسية قبل كل شيء آخر .

والحرية ! ... ميزة الجمهورية الكبرى كما يقول الدكتور تصور بحق « حرية المواطن في العيش وطلب السعادة . حرته في ابداء الرأي وتصريف العمل . حرته في اختيار نوابه ومراقبة حكامه بواسطة النواب » هذه الحرية التي وصفها الكتاب ابلاغ وصف في القول الذي استشهدت به في مطلع هذا المقال ، والتي نجلها ونضعها في حيز المقدسات ، هل نستطيع حقاً ان نفرص بين الحرية كفكرة مقدسة والشروط لممارسة الحرية حتى لا تنقلب الى استعباد القوي للضعيف ؟ وعلى ذلك فورا الحكومات واشكالها واجهزتها الانسان الذي يعطي معنى لكل شيء خلال ما ينعكس من عالمه الروحي العميق على العالم الخارجي الذي يتفاعل واياه . الديمقراطية العربية الصحيحة ... انها الفرد العربي الجديد الذي يسعى الدكتور تصور وكل مفكر عربي مخلص حلقة والذي لم يوجد بعد . فالمشكلة أعمق وابعد واعقد بكثير من مجرد مشكلة جهاز الحكم وشكله الامثل .

وعلى هذا الصعيد من النقد يبدو لنا ان الكتاب يثير اسئلة اخرى كثيرة في الاذهان في طليعتها علاقة الاحداث والانقلابات السورية بكرثة فلسطين . فالكتاب الذي يحلل هذه الاحداث يبدو خلواً من اي بحث حول هذه المشكلة الاساسية وصلتها بالانقلابات ، وتأثيرها على رجالها مع انها

جورج طعمه

- البقية على الصفحة ١٠٣ -

## التاج الجديد

- تنمة المنشور على الصفحة ٤٧ -

كانت دون ريب بمثابة الشرارة التي فجرت الخزون من الحيبة المريرة والالم والنقمة . والنظام الديمقراطي الذي تهدم عقب الانقلاب الاول الم يكن بدوره مسؤولاً عن الفشل والكارثة ؟ وهو تساؤل يصح لبالنسبة للحكم في سوريا فحسب بل وفي جميع البلاد العربية . ومشكلة الحكم في سوريا هل يمكن عزلها وفصلها عن الحياة العربية بكاملها وعن مشاكل الوطن العربي الاكبر - وهو الاطار الطبيعي - الذي لا يمكن فهم مشاكل اي بلد عربي الا ضمنه ؟ ولقد اشار الكاتب في آخر الكتاب الى هذا الامر بشكل مختصر . ولكنه لو وضع تحفظاً في مقدمة كتابه يستدرك هاتين الناحيتين ، ويشير الى انه يقصر بحثه على الاحداث السورية ضمن سوريا فحسب لكان افضل . واننا لنؤمل ان يفعل ذلك في طبعة مقبلة لما نتوقع للكتاب من رواج جدير به .

والكاتب في حرصه على تثبيت دعائم الحكم الديمقراطي يذهب الى التاريخ الاسلامي البعيد ليجد شواهد فيه تؤيد موقفه . وهذا ما فعله في بحثه «مشكلة الحكم على ضوء التاريخ العربي» . ولقد اجاد كل الاجادة في وصف «بيعة السقيفة» وتخليها وسرد مناقشاتنا في اسلوب خطابي بليغ ، وتصويرها كجلس شوري . لكن هذا الحادث لم ترسخ آثاره في اغوار الحياة الاسلامية . ولم يمتد فعله اكثر من خمسة عشر عاماً على الاكثر انتهت بمقتل عثمان وخلافة علي . ثم تطور نظام الحكم في الاسلام خلال مئات السنين التي عاشها تطوراً معاكساً تمام المعاكسة . وظل هذا الحدث الجزئي في صدر الاسلام حدثاً جزئياً منعزلاً ، عاش كرمز ومثال لا كقاعدة ثابتة نشأ عنها نظام حكم ديمقراطي .

وذهب الدكتور منصور في آخر بحث من الكتاب «اما بعد» الى انتقاد الفقرة الثانية من المادة ٩٤ من دستور سوريا لعام ١٩٥٠ التي نصت : «لا يجوز ان يحل مجلس النواب قبل مضي ثمانية عشر شهراً من انتخابه» . فلو ان مجلساً على حد قوله «لم يستطع ان يعطي البلاد حكماً مستقراً مسؤولاً ، هل تعيش البلاد ثمانية عشر شهراً بدون حكومة مسؤولة وبدون قرار» ، ولكن هب ان مثل هذا المجلس قد حل واعيد مجلس مماثل تماماً مع تعديل طفيف لا يغير شيئاً من جوهر الامور ترى تحمل مشكلة الديمقراطية ومشكلة جهاز الحكم؟ لم يجابه كرومويل مشكلة مماثلة بمض الشيء ؟ كل ذلك يبدو بنا الى الظن ان الوقت لم يحن بعد لأن نحكم احكاماً نهائية مطلقة على الاحداث الا ضمن تحفظات كثيرة .

الفكر والسياسة : في نوع من الجزع الروحي العميق يتساءل الدكتور منصور : « اين يجري البحث عن الحقيقة في بلاد الشام ؟ اين تدرس قضايا الروح وقضايا العقل ومشاكل الاجتماع والسياسة والاقتصاد بروح التجرد والاخلاص ؟ » ان الذين يعرفون فقط الواقع الذي يتساءل عنه الكاتب ، والذين يحسون شواظ رياح الصحراء تهب على بلاد الشام فتحيلها الى امتداد للصحراء ، يدركون وحدهم فقط اية مرارة ينطوي

عليها هذا التساؤل . « مرت عاصفة فلسطين ولم تخلق في عالم الفكر سوى رسالة كتبت على عجل » ... « والغبي دستور ووضع دستور وعلق دستور ولم نسمع كلمة المفكرين في نظام الحكم وما يلائم طبائع العرب وحاجات الزمان .. » و« حدثت الاحداث الجسام فما حركت مفكراً ولا اوحت بنظرية او رأي صحيح » .

وفي مكان آخر من الكتاب : « ان الفكر السوري لم يلعب حتى الآن دوراً بارزاً في حياتنا العامة ولا استطاع ان يحتمل مكانه الطبيعي في نظام الاشياء ، وهو مكان الدماغ من الجسم ، ولا عرف الناس له هذا المكان » .

هكذا يأخذ الدكتور منصور على النخبة المثقفة في مناقشة محكمة حيادها الفكري والعلمي وصدورها عن ميدان السياسة . ولا تستطيع هذه النخبة الادعاء ان الحرية هي ما ينقصها « والمفكر الاصيل - على حد قوله - يمنح نفسه الحرية الكاملة ويقول ما ينبغي ان يقال » . وهوذا يناقش هذا النص في حياتنا السياسية الفكرية يشدد على ايمانه بالعقل « مرشداً وهادياً ومنظماً لحياة الناس » ، وعلى اسبقية الروح والخلق في العمل السياسي ، الذين يستطيعان وحدهما رفعه من آفاقه الضيقة « فالعمل الاساسي المجدي يجب ان يكون عملاً اخلاقياً قبل كل شيء ، عملاً روحياً يقوم على الفضائل الشخصية لا على نظرات المصالح ، على الواجب لا على مجرد تحسين العيش » هنا تأتي مسؤولية النخبة المثقفة قومياً وفكرياً وسياسياً . فظهورها الفعلي للوجود ضرورة ملحة . وعملها هو السبيل الوحيد لاغتياق الشكوى من حدود الذاتية الضيقة الى العمل الخلاق . فالشكوى اذا ظلت سجينة ذاتها انتهت الى شبه اختناق روحي هو في طليعة اسباب العقم الذي نشكو منه . وقد تكون المرحلة الحاضرة في حياة العالم العربي من اكثر المراحل بليلة وابهاماً ؟ وهل واجب الفكر ان وجد وكان واعياً لذاته الا ان يزيد الابهام . قال المؤلف : « مشكلة الحكم لا تعالج معالجة مجدية في مقال عابر او حديث مختصر . وإنما تحتاج الى ادمغة كثيرة تنصرف للبحث بضع سنين لتخرج علينا بدراسة جديفة ورأي حكيم » .

ما اكثر النواحي الغنية بالفكر التي يمكن الكشف عنها في كتاب الدكتور منصور . ان مؤلف كتاب « قبل فوات الاوان » منح نفسه الحرية الكاملة وقال ما ينبغي ان يقال . ولشد ما تتضح جرأته وصراحته عند معالجة مشكلة الازدواج في الحكم السوري بين السلطين المدنية والعسكرية ، ونقده للحكم للكتاتوري . كل ذلك في اسلوب ادبي رفيع بليغ . « فقصر واهل الرأي » مثلنا نظل من ابلغ ما كتب في ادبنا السياسي وما اوحت الاحداث . لكن الكتاب اكثر من كتاب حول احداث معينة . انه بحث فكري عقلي في الحياة السياسية العربية ومشاكلها الاساسية . ونشير فوق هذا وذلك الى المحبة والايان اللذين يشعان بين سطور الكتاب . تلك المحبة التي جاء في وصفها انها : « تتأني وترفق ، ولا تغضب ولا تحسد ولا تنتفخ ، ولا تطالب ما لنفسها ولا تظن السوء . ولا تفرح بالاثم بل تفرح بالحق . » والتي جعلت الكاتب يقول : « من احب وطنه احبه على علاته واجبه حتى الموت » . وذلك الايمان الذي بغير وجه العالم مستهدداً اكثر من مرة بالقول البليغ : « ان العالم لم يغلب بالكيدهم والدهاء وانما غلب العالم بالايمان ... »

« الايمان ... آه لو استطاع امرؤ ان يؤمن بشيء ويكتسح الدنيا »

جورج طعنه